

سيناء .. أرض الله المختارة

يبدو الحديث عن سيناء فى عيدها فى " ٢٥ إبريل"، بعد عودتها وتحريها من الاحتلال منذ خمسة وثلاثين عاماً، مصحوباً بكثير من الشجن والغضب والرفض، وهى توصيفات يعبر عنها واقع اللحظة الراهنة بكل مخاطره وتداعياته، ليس فقط بالنسبة لمحاربة الإرهاب، ولكن أيضاً لاستمرار معاناة أهالى سيناء بشكل عام ومدن العريش ورفح والشيخ زويد بشكل خاص، وكذلك لاستمرار الكثير من الصور الخاطئة والمدركات السلبيّة بين أهاليها فى سيناء وأهاليها فى كثير من مناطق مصر، فضعف معدلات التنمية وعدم فعالية الأجهزة المحليّة فى مناطق الأطراف أسهم كثيراً فى توليد العديد من المدركات والسلوكيات الخاطئة المتعلّقة بما يجب أن يجمع علاقة المجتمع ومواطنيها بالدولة.

هذا الحديث الآن، يعبر أيضاً عما أفرزته الكثير من السياسات والخطوات التعميرية الفاشلة فى سيناء من جانب، وما أفرزه اتفاق السلام مع إسرائيل من قيود أمنية وسياسية واقتصادية من جانب ثانٍ، وتعكس كذلك تأثير غياب مفهوم التنمية المستدامة عن سيناء من جانب ثالث، وتأثير ضعف دور الدولة ممثلة فى مؤسساتها، لاسيما المحليّة فى مجتمع تقليدى يغلب عليه الطابع القبلى.

وبالتالى يبقى إعادة تحديد هذه العلاقة وما تتضمنه من عقد اجتماعى جديد، مطلباً حيويّاً واستراتيجيّاً للدولة المصريّة حالياً، فجملة التحديات المتعلّقة بالأمن والاستقرار والتنمية تفرض الاهتمام ببناء الإنسان وتنمية قدراته ومهاراته، كمدخل لا غنى عنه لضمان الأمن وتحقيق التنمية وبناء السلم الاجتماعى، فالاهتمام بالإنسان المصرى وتمكينه يجب أن يحكم أى فلسفة قادمة للبناء وتنمية المجتمع، وإن كان من الضرورى أن تستند عملية التمكين من حيث المعارف والمهارات والسلوك إلى احتياجات البيئة التى يعيش بها الإنسان.

ومن ثم فالاهتمام بأهلينا في سيناء يمثل نقطة الانطلاق لتعمير سيناء وتنميتها، مع مراعاة خصوصية المواطن السيناوى وما يحمله من خصائص بدوية معبرة عن خصوصيته المجتمعية، تظل أفضل السبل لضمان بناء إنسان يمتلك من مقومات الحياة الكريمة ما ينمى من شعوره بالمسئولية تجاه مجتمعه وتجاه بلده معاً.

لا شك أن سيناء تمثل جزءاً غالبياً من أرض مصر، ويدرك الجميع أهميتها الاستراتيجية وما تحتويه من ثروات، كما يدرك الجميع حجم التضحيات والدماء التى سالت وما تزال تسيل على أرض سيناء الطاهرة، فأرض الفيروز التى عانت من الإهمال الذى يضرب بعض أجزاءها الإرهاب من ناحية، ويتكالب عليها العديد من الأطراف والفاعلين والأدوات المهددة لاستقرارها وأمنها ممثلة فى التهريب وتجارة الأسلحة والاتجار بالبشر من ناحية ثانية، ويتهدد حدودها أطراف وقوى لا ترغب فى استقرارها من ناحية ثالثة، تعكس مفارقة مميزة موقعها الذى تحول لنقمة بسبب إهمالنا.

أولاً: قدسية سيناء

هى أرض سيناء التى باركها الله واختارها ليتجلى عليها ويكلم سيدنا موسى، وندائه ” إني أنا ربك فأخضع نفسك إنك بالوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) (سورة طه آية ١٢). وقوله تعالى (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَنهَا نُوْدِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِئِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (القصص ٢٩ : ٣٠).

سيناء هى البقعة المباركة التى أقسم بها فى قوله تعالى «والتين والزيتون وطور سينين»، البقعة الأطهر على أرض الكون، التى لم نعطها على امتداد تاريخنا حقها من الاهتمام والرعاية، ولم نمح أهلها ما يستحقوا من سبل الحياة الكريمة وسبل الاندماج الكامل فى نسيج الشعب المصرى.

فظلوا يعانون التهميش وظلت سيناء داخل قلب كل مصرى ولكن بعيدة عن عقله وضميره الوطنى، أن لها أن تتطهر من دنس الإرهاب ومن الجماعات التى تسمى للإسلام والأديان، وتوظف لمشاريعها السياسية، وأطماعها الإقليمية والدولية.

سيناء تلك القطعة من الأرض التى باركها الله عز وجل لم تلق منا ما يليق بقدسيتها، ومكانتها الدينية والروحانية والتاريخية والاستراتيجية، فقد ظلت سيناء بؤرة توتر فى تاريخنا، لاسيما الحديث، وضلعاً أصيلاً لمعاركنا التى خضناها بعد ثورة ١٩٥٢، فسيناء هى الهدف والمقصد لكل أعداء الأمة المصرية، سواء تمثّلوا فى إسرائيل أو الإرهاب كأعداء ظاهريين، لكن يبقى الأعداء الأهم والحقيقيون لهذه الأرض وأهلها هو الجهل والفقر والتهميش، فقد قدم السيناوية على امتداد تاريخهم ملامح تضحية وفداء وولاء لأرضهم بشكل خاص وبلادهم بشكل عام.

لكن ظل التعامل معهم على مر العقود السابقة على أنهم ضيوف على الوطن وليس جزءاً أصيلاً من الوطن وأغراب بين أهلهم بلا منطق أو معنى فالأنظمة السياسية السابقة قررت معاقبتهم على ضعفهم وعجزهم على حمايتهم من الاحتلال الإسرائيلى أكثر من مرة (١٩٥٦ - ١٩٦٧ حتى ١٩٨٢).

عادت سيناء للوطن فى ٢٥ إبريل ١٩٨٢ (طابا ١٩٨٩) ولكن لم يعد إليها الوطن، فقد تم لفظها من كافة مشروعات التنمية الحقيقية (إلا قليلاً)، لاسيما فى جزئها الشمالى والوسط وأبعدت عن كل ما يمكن أن يزيد روابطها وصلاتها القوية بباقي أجزاء الوطن.

والآن تخوض سيناء وتخوض معها الأمة المصرية معركة أمام الإرهاب، معركة وجود، والسؤال: كيف واجهنا ونواجه الإرهاب هناك؟ وما هى الرسائل أو الخطط التى نعمل عليها لدحر التطرف والبيئة الحاضنة هناك؟.

نحن أمام معركة سياسية ومطالب واحتياجات تنموية، لمواجهة قوى الإرهاب والتطرف التى تسعى لضرب كيان الدولة وتهديد أمنها وإضعاف قدراتها ومقدراتها، صحيح علينا أن نخوض تلك الحرب بكل الوسائل العسكرية والأمنية والسياسية ولكن صحيح أيضاً أن هذه الحرب تحتاج لتفعيل القدرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى تكمل لنا النصر الحاسم.

الجيش فى سيناء ومعه الكثير من أهل سيناء يقدمون ملاحم فداء لأرض الله المختارة لحمايتها والمحافظة عليها كجزء من هذا الوطن، ولكن لا بد أن يواكب العمل العسكرى والأمنى منظومة تنموية متكاملة تحقق الحد الأدنى من العيشة الكريمة لأهالى سيناء، وتوفر لهم سبل التواصل والإيمان بقوة الدولة، وكونهم جزءاً من هذه الدولة وأبناء حقيقيون لهذا الوطن.

ثانياً: معركة التنمية والبناء

هذه المعركة لا بد وأن تستند إلى هدف رئيسى مفاده توفير مقومات مجتمعية قادرة على عزل كافة أفكار التطرف والتشدد ومحاصرتها، وتعظيم قدرات مؤسسات الدولة والمجتمع، وفى هذا الإطار يمكن الإشارة للعلاقة الارتباطية بين قضايا التطرف لاسيما التطرف الفكرى والإرهاب بـ ثلاثية «الفقر والجهل وتسييس الدين وتوظيفه»، فهذه الثلاثية تشكل بيئة خصبة لنمو التطرف الدينى، وتنامى مظاهر عدم الارتباط والولاء للدولة، ونمو عوامل تفكك المجتمع وتهميش بعض فئاته، ومن ثم إضعاف الدولة وزيادة هشاشتها وإفشالها.

وهو ما يتطلب تبنى مجموعة من الأهداف الفرعية والداعمة لهذا الهدف الرئيسى، منها: تحديد أولويات الاحتياجات، ومتطلبات التحرك، والفترة الزمنية المحددة، والشرائح المجتمعية المستهدفة.

أول الأهداف: يستند إلى استمرار النهج التراكمى الداعم لتعزيز وترسيخ فرص التواصل المجتمعى، والتوافق حول القضايا الخلافية، وربط تقديم الخدمات وأولوياتها بأولويات ومتطلبات التحديات الراهنة، وما تفرضه معركة الإرهاب من متطلبات مواجهة.

أما ثانياً الأهداف، فيرتبط بتنمية القدرات البشرية والتنموية بشبه جزيرة سيناء، وذلك بهدف رفع قدرات بدو سيناء للمساهمة فى التنمية المجتمعية، لاسيما بالتدريب المهنى لتأهيل شباب البدو فى محافظة شمال سيناء على عدد من الحرف المهنية واليدوية، مثل: إصلاح وصيانة الغسالات، والحاسب الألى، والدش، والهاتف الجوال، والتبريد والتكييف، والمشغولات اليدوية السيناوية،

جنبًا إلى جنب مع تنمية ودعم المشروعات الصغيرة وبالقدر الذى يسهم فى تمكين المرأة السيناوية اقتصاديًا وتحويل المنازل إلى وحدات إنتاجية يشارك بها كل أفراد الأسرة ويحولهم إلى طاقة إنتاجية واقتصادية، لمواجهة تزايد أعباء البطالة وتزايد أعداد الأسر المعيلة.

وأما ثالث هذه الأهداف: فيرتبط بتوسيع الفضاء العام أمام أهاليها فى سيناء للمشاركة فى دعم المنظمات الأهلية والمبادرات المجتمعية الداعمة لتقوية قوى المجتمع لبناء حضارة مجتمعية تساعد على محاصرة هذه المظاهر، وتوفر المقومات العازلة لها اجتماعيًا. وتدعم مقومات بناء السلم الاجتماعى.

وأما رابع الأهداف، فيرتبط بتجاوز عدد من مظاهر «مجتمع المخاطر» التى أفرزتها الجماعات الإرهابية والمتشددة فى بعض مناطق سيناء، لاسيما مناطق الشيخ زايد والعريش من حيث مواجهة المخاطر التى تهدد الأمان الشخصى أو المجتمع السيناوى ككل: وهو ما يتطلب عدم الاقتصاد عن التصدى الأمنى والعسكرى بل يتطلب أيضًا سياسات وبرامج تهدف لزيادة وعى المواطنين وتفعيل المقومات المجتمعية لتشكيل حائط سد مجتمعى يسهم فى تقليص كافة المظاهر السلبية والمهددة لاستقرار وأمن المجتمع السيناوى.

واتساقًا مع هذه الأهداف، فيمكن التأكيد على مجموعة من الركائز والعوامل الداعمة لتحقيق هذه الأهداف، هى:

١- مبادرات مجتمعية

السعى نحو تنمية سيناء، والاهتمام بالمواطن السيناوى يظل مطلبًا وضرورة تفرضها مقتضيات التنمية الشاملة، والمساواة فى حقوق المواطنة. وإن كانت متطلبات تحقيق هذه المطالب تفرض تفعيل مسئولية المجتمع الأهلى بمنظوماته ومقوماته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بكافة مؤسساته جنبًا إلى جنب المؤسسات الحكومية والقطاع الخاص، فإن متطلبات تحقيق التنمية المتوازنة بين كافة أنحاء الجمهورية تفرض بالضرورة إعطاء أولوية لمزيد من الاهتمام بالمواطن السيناوى كسبيل للمحافظة على تماسك الوطن وهويته والشعور بالانتماء.

ولذا تبقى متطلبات تكامل مداخل التنمية مرتبهة بالقدرة على توفير إمكانيات تمكين هذا المواطن إلى الحد الذى يمكنه من القدرة على التعبير عن ذاته وتحمل المسئولية وامتلاك الخيارات. واتساقًا مع هدف تمكين المواطن السيناوى وتعمير سيناء، فإن متطلبات وضع استراتيجية متكاملة المجالات (اقتصادية، اجتماعية، ثقافية) ومتعددة الأطراف (مجتمع مدنى، مؤسسات حكومية، قطاع خاص)، ومتكاملة المراحل، ترتبط بتعظيم فرص المبادرات المجتمعية فى هذا الإطار. من الضرورى زيادة ودعم قدرات الجمعيات الأهلية السيناوية، سواء عبر الجمعيات الأهلية الكبرى أو باقى مؤسسات المجتمع المدنى المصرى أو الدولة أو القطاع الخاص ومؤسساته لتبنى مجموعة من المشروعات التنموية والبرامج التوعوية الداعمة لتمكين المواطن السيناوى والهادفة أيضًا لرفع قدرات الجمعيات السيناوية وكفاءتها على متطلبات الإغاثة وسبل مواجهة الاحتياجات الطارئة، فضلًا عن دعمها لتحقيق التواصل والتفاعل والتشبيك مع القوى المجتمعية والأطراف النشطة والفاعلة فى سيناء، بهدف بناء الوعى

التشاركي (بين الفواعل أو الأطراف الرئيسية مثل القيادات المحلية والقيادات الطبيعية ومنظمات المجتمع المدني والقطاع الخاص والإعلام المحلي)، وطرح نماذج التنمية بالمشاركة، والتوعية بأهمية بناء شراكات وشبكات بين هذه الأطراف.

٢- تعزيز فرص الحوار المجتمعي والديني الداعم للقيم المشتركة في الديانات السماوية والانفتاح على الآخر وتعزيز ثقافة التسامح وتجديد الخطاب الديني والتركيز على التنوع البشري الخلاق. وأن يستند هذا الحوار إلى أجندة وطنية للحوار داعمة لاستنهاض الدولة المصرية الحديثة والديمقراطية، مع التركيز على المكون الثقافي والتنويري، وما يقتضيه من تفاعل مع الثقافة المجتمعية ومنظومة القيم السائدة في المجتمع، كسبيل لتعزيز فرص بناء الدولة الديمقراطية وتعظيم فرص مشاركة المواطنين وتمكين المجتمع.

٣- مواجهة الشعور بالظلمية، فرضت المعاناة والشعور بالإهمال التي يعيشها غالبية أهاليها في سيناء نفسها على واقع العلاقة بين المركز (العاصمة) والأطراف كما أنها غزت فكرة الاعتماد على الذات بعيداً عن العلاقة بالدولة، لاسيما مع استمرار النقص في الخدمات الأساسية لاسيما الصحية ومياه الشرب، والإحباط من قصور عملية التنمية.

٤- استهداف شرائح وفئات مجتمعية وألويات تنموية، وذلك على النحو التالي:

أ- تلبية عدد من الاحتياجات المعيشية والتنموية التي تعكسها مؤشرات التنمية البشرية في سيناء والتي تؤثر سلباً على حياة المواطنين، وفي مقدمتها الخدمات الطبية والعلاجية لاسيما للأطفال والأمهات.

ب - بناء شبكة للتفاعل والتعاون بين الأطراف الفاعلة في قضايا الشباب لتعزيز فرص التنسيق لجمعيات أهلية، مراكز شباب، قطاع خاص، مجالس محلية) ودعم قدرات الشباب وإعادة تأهيلهم لمواجهة مخاطر التهميش والاعترا ب وضعف الهوية.

ج - تفعيل أجندة الحوار المجتمعي حول قضايا المجتمع المصري والواقع السيناوي، بهدف تعميق مفاهيم المواطنة والمصلحة العامة وقضايا الشباب ومواجهة بعض مشاعر وأحاسيس التمييز السلبي الذي يستشعرها أهالي سيناء.

د - تسريع وتيرة المشروعات القومية المستهدفة في سيناء حتى يستشعر المواطن السيناوي بثمار ومردود هذه المشروعات.

٥- تكوين منظومة ثقافية وإعلامية وصحفية وفنية، تؤمن بقيم الدولة المصرية تساند القوات المسلحة والشرطة وظهره الشعبى في سيناء، وتوقظ الإحساس الوطنى لدى باقى الشعب ليدرك أننا فى معركة حقيقية، وأن يكونوا جزءاً منها ولو بأضعف الإيمان وهو المؤازرة والمساندة للمقاتلين هناك.

وهنا تقفز إلى الذاكرة صورة أم كلثوم وهي تخصص أربع سنوات بعد حرب ١٩٦٧ لتقديم حفلاتها داخل مصر، وخارجها لصالح المجهود الحربي، ووفقاً للتقديرات فقد جمعت "سوما" نحو ٣ مليون دولار، وكانت من المشاركين في بناء جيش مصر الحديث بعد الهزيمة. هذا النموذج من العطاء يتكامل مع المقاتل في الجبهة، ويدعم رسالة الوطن والمواطنين، كما عبر عنها عبد الحليم حافظ، بكلمات الأبنودي، وتوصيفه الحياة ومعركة التحرير، بكلمات موجزة ومعبرة "قالوا الحياة غالية قلنا الشرف أغلى"، حرب تحرير الأرض كانت أبلغ رد على أصالة وقوة وصلابة الشعب المصري، شريطة أن تتوافر المصادقية والإرادة والعلم، وتصاغ الأهداف بدقة وتتحدد الأدوات وركائز الحركة، فالشعور بالمسئولية من جانب أهاليها في سيناء لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، والدفاع عن الأرض والعرض، نابع من المخزون الحضاري والقيمي، وبالتالي علينا أن نبحث الآن عن هذه النماذج، الموجودة بالفعل، ليقدموا كنماذج قادرة على تحفيز العطاء الشعبي والمجتمعي.

فالحرب ضد الإرهاب، هي مسئولية الجميع وليست مسئولية الجيش والشرطة أو حتى أهالي سيناء فقط، فهي حرب أهالي مصر، وكما هو معروف أن لكل حرب مقوماتها وركائزها وأساليبها، وبالتالي الحديث عن كونها ظاهرة يعاني منها العالم صحيح، وأن هناك من يستهدف مصر بشكل عام وسيناء بشكل خاص، فهذا صحيح أيضاً، ولكن من الصحيح أيضاً أن نعمل على توفير مقومات إرادة الصمود والبناء وهي مسئولية الجميع.

فمعارك الأوطان الجميع فيها جنود وإن اختلفت الأدوار. وأرض الله المختارة تستحق أن تتكفل مصر بكافة أطيافها خلفها.

مصر في حاجة لاستعادة قوتها الناعمة وتبني مشروع ثقافي قيمي داعم لحضارتها ودورها التاريخي، يستند إلى الالتزام بالقانون والأخلاق والوسطية والمواطنة. مشروع يراعى الإنسان، ويستند إلى منهاج تعليمي وثقافي قادر على إحداث التغيير في المفاهيم، وفي أسلوب المعيشة، وفي العلاقة مع الآخر، وفي العلاقة مع الوطن وأخيراً العلاقة مع الدولة.

بمعنى أدق يجب أن نمتلك إستراتيجية قادرة على امتصاص التأثيرات السلبية للمرحلة الانتقالية، كركيزة لتخفيض فاتورة وتكلفة عملية التحول والإصلاح، وركيزة لاستعادة القوة الناعمة للدولة المصرية كسبيل للتقدم وبناء المستقبل، كما يجب أن ترتبط أدوات تلك الإستراتيجية الخاصة بمواجهة مشكلات مثل: الفقر والأمية والبيروقراطية والفردية وتحقيق العدالة الاجتماعية، بهدف بناء مجتمع عصري قادر على تفعيل مقومات التكامل والمشاركة بين كافة أركان الدولة وهو ما يتطلب أيضاً حدوث قدر كبير من التنسيق القائم على المفاوضات وتوزيع الأدوار بين كافة الأطراف والقوى السياسية والمجتمعية واستيعاب التكوينات الاجتماعية المختلفة، وقبل ذلك كله تنمية الوعي بمتطلبات بناء الدولة الحديثة.

د. أيمن السيد عبد الوهاب